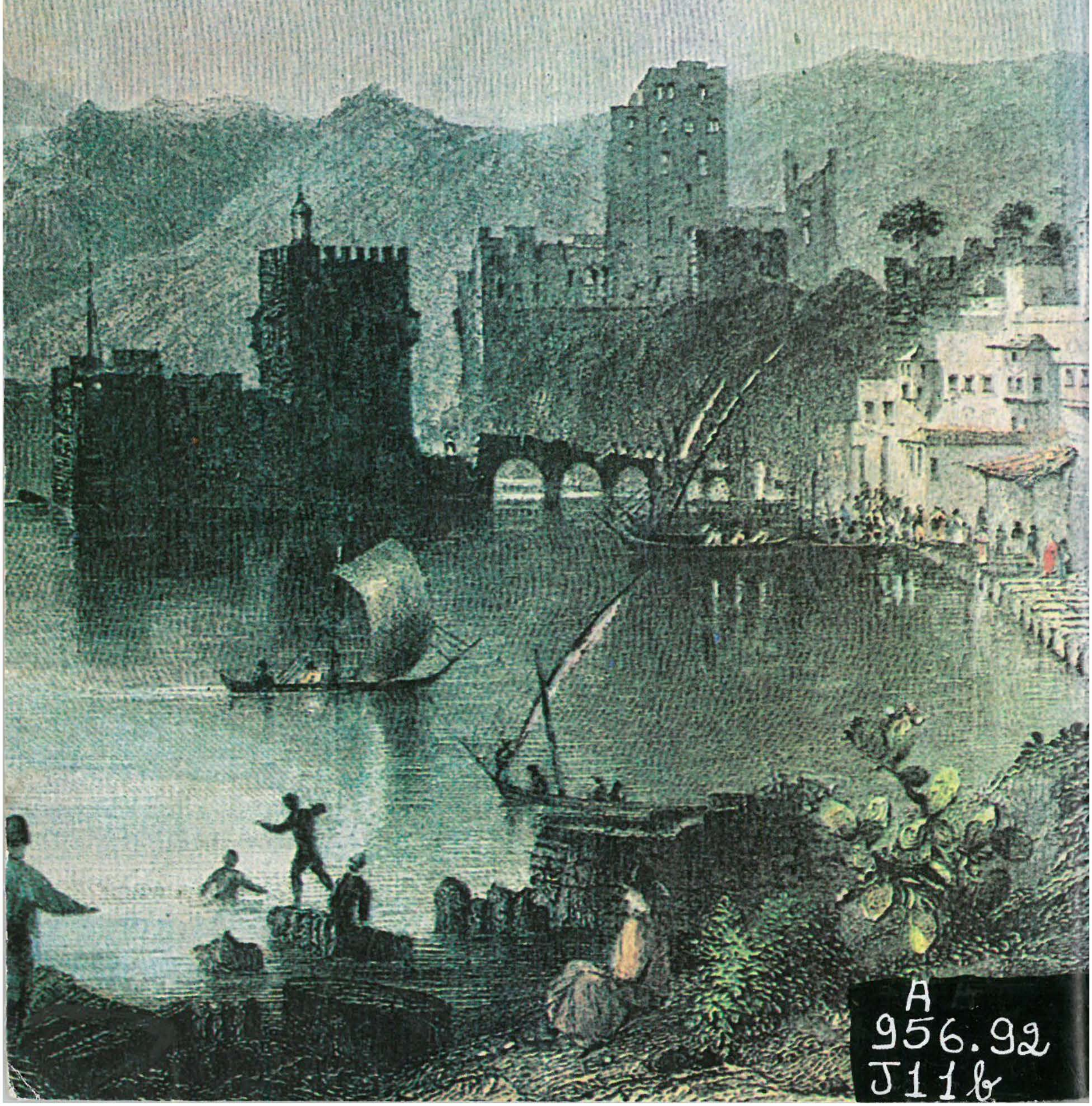
بيروت
عدد خاص

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثانية عشرة - العدد ١٣٥ - كانون الثاني (يناير) - شباط (فبراير) ١٩٩٢ - الموافق جمادى الآخرة ١٤١٢هـ



بيروت من خلال رحلة عبد الغني النابلسي

د. ميشال جحا

نسبه:

من هو النابلسي؟ هو عبد الغني بن إسماعيل النابلسي. ولد يوم الأحد رابع ذي الحجة عام ١٠٥٠هـ / ٧ آذار (مارس) ١٦٤١م، في دمشق في عائلة عرفت بإنجاب عدد من العلماء والأدباء المرموقين. كانت عائلته تعرف بـ «بنو جماعة» من بيت المقدس ثم سكن جده إبراهيم في نابلس فعرفوا بآل النابلسي.

وكان جده الأكبر إسماعيل قد عيّن أستاذاً للمسجد الذي بناه درويش باشا الوالي العثماني على دمشق ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م والذي عرف بجامع الدرويشية، وكان على المذهب الشافعي. فأصبح ذلك تقليداً للعائلة.

انصرف النابلسي إلى طلب العلمَ والأدب فدرس علوم اللغة والفقه والحديث والتفسير ومارس نظم الشعر وكان ذلك وفقاً للعادة المتبعة في عائلته، ثم أقبل على دراسة كتب المتصوفة وخاصة ابن عربي وعفيف الدين التلمساني ومن ثم انضم إلى الطريقة النقشبندية وإلى القادرية، وقد سلك طريقة القادرية على يد عبد الرزاق الجيلاني، أحد خلفاء مؤسسها عبد القادر الجيلاني. وفي العام ١١٠٥هـ / ١٦٩٣م زار النابلسي قبر شيخه في حماه.

وبقي النابلسي وفياً للقادرية طوال حياته. وإلى جانب ذلك كانت له علاقة وثيقة بالشاذلية. كما عبّر عن احترامه للطريقة المولوية التي كان أهلها يتمتعون في أواسط القرن السابع عشر بوزن سياسي في الدولة العثمانية.

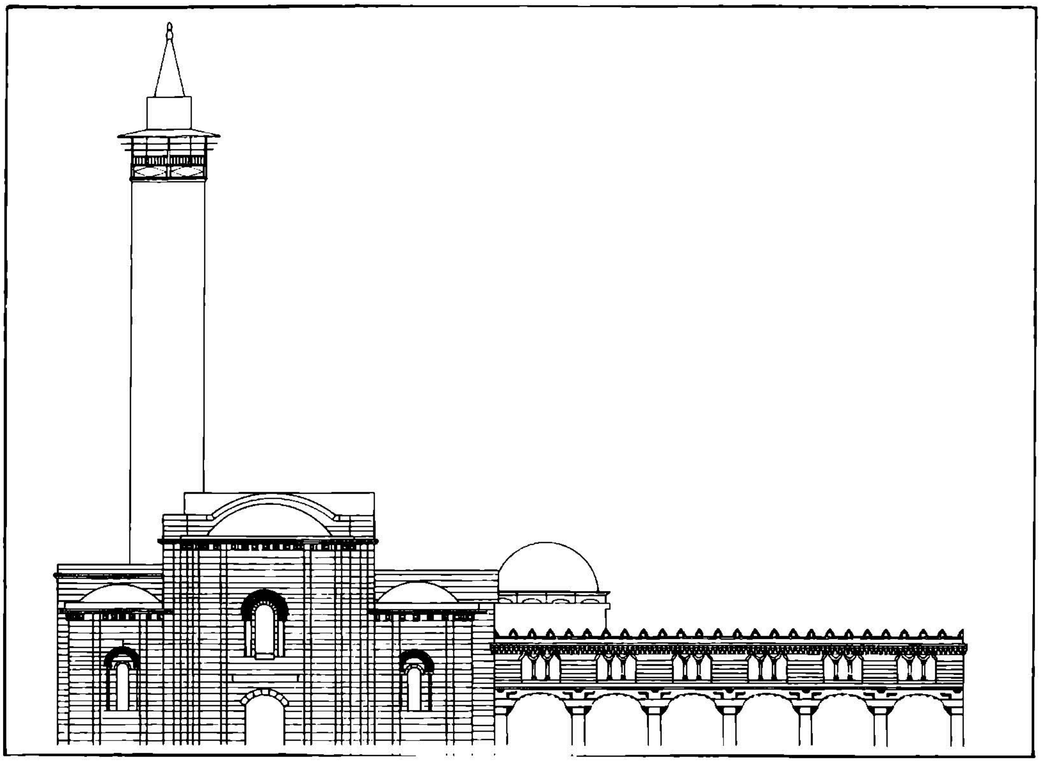
ولما بلغ العشرين من عمره بدأ في إلقاء الدروس في الجامع الأموي بدمشق. وفي الخامسة والعشرين قام بأول رحلة قادته إلى دار الخلافة. ثم تعاقبت رحلاته التي كان يقوم بها لزيارة قبور العلماء والأولياء الصالحين. وكان مسكنه في دمشق بالقرب من الجامع الأموي وتوفي فيها في الخامس من شعبان ١١٤٣هـ / ٥ آذار (مارس) ١٧٣١م عن عمر يناهز التسعين ودفن في الصالحية بجانب ابن عربي. وقد ذكر أن المدينة اهتزت لوفاته إلى درجة أن أوابها أغلقت يوم جنازته.

وهو يعدّ من أبرز الوجوه الصوفية التي عاشت في بلاد الشام في تلك الحقبة، أي في القرن الثاني عشر الهجري / السابع عشر والثامن عشر الميلادي.

مصادر دراسته:

يوجد عدد من المخطوطات التي تناولت حياة النابلسي وسيرته. أغلبها من وضع تلاميذه. أهمها المخطوطة التي وضعها السيد محمد كمال الدين أفندي الغزي العامري (١٢١٤هـ / ١٧٩٩م). توجد نسخة منها في مكتبة يافت في الجامعة الأميركية في بيروت مشتراة من عيسى اسكندر المعلوف سنة ١٩٠٣. واسمها: «الورد الأنسي والوارد القدسي في ترجمة العارف بالله تعالى سيدي الشيخ عبد الغني النابلسي». مؤلفة من ٢١١ صفحة مكتوبة بخط جميل وحالتها جيدة بيد أن السوس قد بدأ ينخر بعض صفحاتها.

كما أن الدكتور صلاح الدين المنجد[1] يذكر في هامش رقم ٥ (ص ٤) أن هناك مخطوطة ثانية



□ الجامع العمري الكبير ـ الواجهة الشرقية.

منها بدار الكتب المصرية رقم ٧١٦١م. بالإضافة إلى مصادر عديدة أتت على ذكره وترجمت له.

كان النابلسي كاتباً وشاعراً غزير الإنتاج، فقد ترك عدا عن ديوان ضخم، عدداً كبيراً من المؤلفات تتناول مواضيع الدين والتصوف والأدب وأدب الرحلة بلغت كما يذكر بروكلمان، مئة وخمسين كتاباً. وأوصلها الخالدي إلى المائتين والخمسين كتاباً. بينما يقول الغزّي صاحب الورد الأنسي الذي مرّ ذكره أن عدد مؤلفاته بلغ ثلاثمائة مؤلف بل أكثر من ذلك، ولكنه يعدد منها مائة وثمانين.

يقول لنا صلاح الدين المنجد(٢):

«هناك قوائم مختلفة سردت فيها أسماء مؤلفاته، كتبت فيما يبدو، في فترات متباعدة، لذلك اختلف عدد المؤلفات فيها.

وقد حاولنا أن نجمع من المصادر المختلفة قائمة واحدة لجميع مؤلفاته. معتمدين على الورد الأنسي، وإجازة النابلسي للكزبري، وسلك الدرر للمرادي وبروكلمان، وما وقع لنا من مخطوطات مؤلفاته، ورتبناها على حروف المعجم وسننشرها على حدة إن شاء الله».

ويحتل التصوف من مؤلفاته المكان الأول، وشهرته فيه تفوق شهرته في العلوم الأخرى. ومن التصوف اهتم النابلسي خاصة بمذهب «وحدة الوجود» الذي أخذه عن محيي الدين بن عربي، وألّف فيه، ودافع عنه، وشرح المقصود منه. فهو باعث هذا المذهب ومجدده.

أما الفنون الأخرى التي ألّف فيها فهي التفسير، والفقه، والعقائد، والمنطق، والقراءات، والأدب، وتعبير الرؤيا، وعلم الفلاحة، إلى جانب مشكلات كثيرة من مشكلات عصره بيّن رأيه فيها، كشرب الدخان مثلاً، وكان النابلسي ينظم الشعر وترك لنا أربعة دواوين شعرية، وكذلك اهتم بالرحلات، وترك لنا أربع رحلات.

رحلاته:

قام النابلسي في حياته بخمس رحلات هي:

الرحلة الأولى:

قام بها، كما ذكرنا، إلى دار الخلافة سنة ١٠٧٥هـ / ١٦٦٤م، يذكر بوسّه[٣] في (ص ١٥ من المقدمة):

«إن الآراء قد اختلفت حول مدلول «دار الخلافة» فالخالدي[٤] يرى أن المقصود بها استانبول — أما كارل بروكلمان[٥] فيرى أنها بغداد. والرحلة إلى بغداد أقرب إلى الاحتمال منها إلى استانبول».

بينما يرى الدكتور صلاح الدين المنجد[٦] أنها كانت إلى القسطنطينية وليس إلى بغداد. وهذه الرحلة لم تدم طويلاً فقد استغرقت ٢٥ يوماً. كما يقول المرادي[٧]. وهو لم يضع أي كتاب في وصف رحلته هذه. ثم يستطرد المنجد حول تفسير «دار الخلافة» بأنها استانبول، ويرد على بروكلمان وكراتشكوفسكي وبوسّه اللذين فسروها خطأ على أنها بغداد فيقول: «وذلك لأن هولاكو قضى على آخر خليفة عباسي سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، عندما هاجم بغداد. ومنذ ذلك الحين لا نجد أحداً من المؤرخين يسمّي بغداد «دار الخلافة»، لأن الخلافة انتقلت منها إلى القاهرة في عهد الظاهر بيبرس سنة ٦٦١هـ / ١٢٦٣م، وصارت مظهراً دينياً اسمياً لا عمل لها في شؤون الدولة.

ثم لما فتح السلطان سليم العثماني مصر سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م اجتمع بآخر خلفاء بني العباس محمد المتوكل على الله، الذي يقال إنه تنازل (أو أجبر على التنازل) عن الخلافة إلى السلطان سليم. وهكذا انتقلت الخلافة من بني العباس إلى آل عثمان وصارت استانبول دار الخلافة».

الرحلة الثانية:

التي قام بها سنة ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م وقادته إلى سهل البقاع وجبل لبنان وهو في الخمسين من عمره وقد جمع أخبارها في كتاب سماه «رحلة الذهب الإبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز»[٨].

الرحلة الثالثة:

التي قام بها سنة ١١٠١هـ / ١٦٨٩م، أي بعد رحلته الثانية بسنة، إلى بيت المقدس وبلدة إبراهيم الخليل وقد وصف لنا رحلته هذه في كتاب سمّاه «الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية»[٩].

الرحلة الرابعة:

قام بها سنة ١١٠٥هـ / ١٦٩٣م زار فيها بعض مدن الشام ومصر والحجاز وهي أطول رحلة قام بها وكان القصد منها الحج إلى مكة المكرمة. ووصف لنا أخبارها في كتاب عنوانه: «الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز»[١٠] وقد دامت ٣٨٨ يوماً، وهذه الرحلة هامّة لمعرفة جغرافية شبه الجزيرة العربية. كما وصف فيها واحداً وثلاثين مركزاً من مراكز الحج المصري.

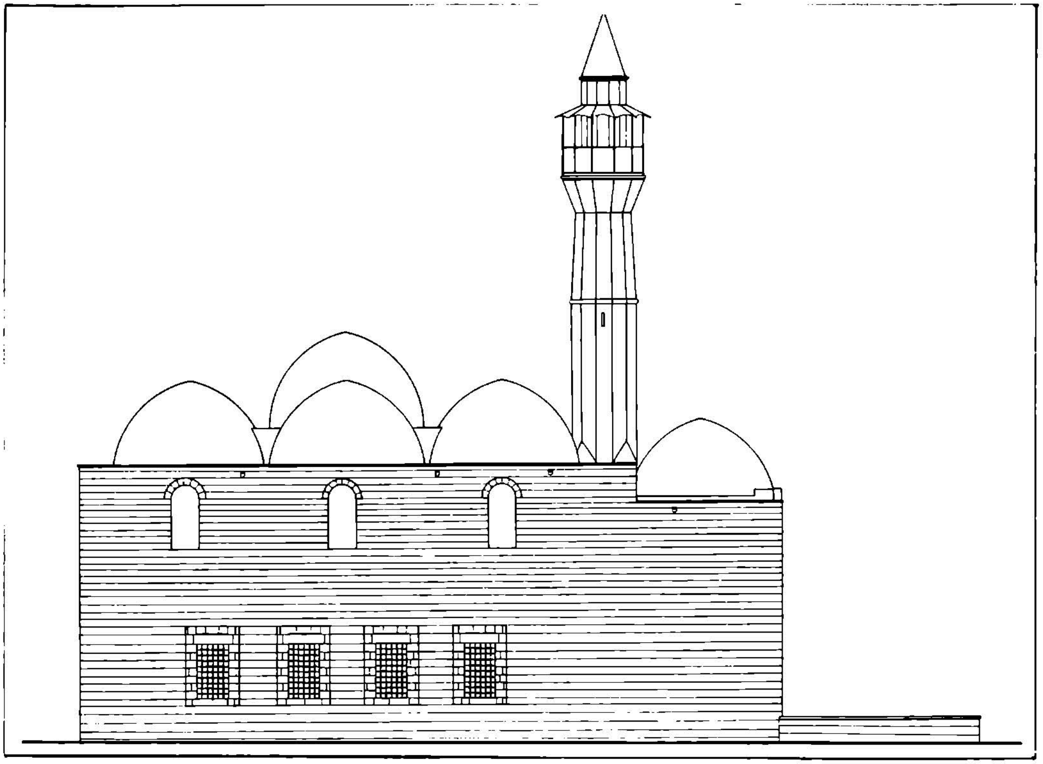
يقول الدكتور عمر عبد السلام التدمري[١١] في مقال له حول هذه الرحلة إنه لم يستطع الحصول على نسخة منها من دار الكتب المصرية لأنها مفقودة. ونحن سنعتمد على مقالين في مجلة «تاريخ العرب والعالم».

الرحلة الخامسة:

قام بها سنة ١١١٢هـ / ١٧٠٠ م وهو في الثانية والستين من عمره. ووصف لنا أخبارها في كتاب سماه «التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية» التي حققها وقدّم لها المستشرق الألماني الأستاذ الدكتور هربرت بوسه Prof. Dr. Heribert Busse الأستاذ في جامعة كيل Kiel بألمانيا الاتحادية والتي سوف نتناولها في بحثنا لأنها كانت في لبنان. وهي آخر رحلة له.

لم يلق كتابه هذا اهتماماً كبيراً في المشرق العربي ولم يصلنا منه سوى ثلاث مخطوطات، وان السبب في عدم الاهتمام به يعود إلى أن لبنان ليس من مراكز الزيارات الاسلامية القديمة كالقدس والديار المقدسة في الجزيرة العربية.

والسبب الثاني هو أنه قد سبقه كتابان حول هذا الموضوع هما «المنازل الأنسية في الرحلة الطرابلسية» للحسن البوريني الدمشقي المتوفى في عام ١٠٢٤هـ / ١٦١٥ م. وكتاب «الرحلة إلى



□ جامع الامير منصور عساف ــ الواجهة الشرقية.

طرابلس الشام» لرمضان بن موسى العطيفي المتوفى عام ١٠٩٥هـ / ١٦٨٤. وهي الرحلة التي حققها المستشرق الألماني الأستاذ الدكتور اسطفان فيلد Prof. Dr. Stefan Wild أستاذ الدراسات العربية والاسلامية في جامعة بون والتي نشرت تحت عنوان «رحلتان إلى لبنان» مع رحلة النابلسي «حلة الذهب الابريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز» التي حققها الدكتور صلاح الدين المنجد كما ذكرنا.

مهنة النابلسي:

التدريس والتأليف، عمل عبد الغني النابلسي في التدريس وكان يدرّس في الجامع الأموي في الشام وفي المدرسة السلمية في صالحية دمشق. وقد تتلمذ عليه عدد كبير من الطلاب من مناطق مختلفة يذكر لنا المنجد (ص ١٩ ــ ٢٤) ١٤٣ طالباً منهم من دمشق وحلب والكفير والبقاع (من قرية جب جنين) وبيروت وصيدا والكورة حيث ورد اسم أحد طلابه وهو مسيحي اسمه الياس بن إبراهيم الكوراني وكذلك من البترون وسواها.

رحلاته إلى لبنان:

الرحلة الأولى: إلى بعلبك والبقاع

أما الهدف من رحلته هذه ــ كما هو في سائر رحلاته ــ فهو يخبرنا عنه بنفسه فيقول إنه أراد الذهاب إلى بعلبك والبقاع العزيز من أجل زيارة قبور الأولياء والصالحين ورؤية الأصحاب.

وكان في رفقته في رحلته هذه جماعة من الكرام وذوي الشهامة يذكر لنا أسماء بعضهم في سياق وقائع الرحلة.

بدأت الرحلة من دمشق قبل طلوع الفجر من يوم الثلاثاء الخامس عشر من ذي القعدة ١١٠٠هـ / ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٦٨٩ م. فبدأ بزيارة رأس النبي يحيى في الجامع الأموي بدمشق ثم توجه ومن معه، إلى باب البريد ليركبوا الخيل إلى الصالحية لزيارة قبر محيي

الدين بن عربي (توفي سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠ م). ثم إلى قبر أبي بكر بن قوام (توفي سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠ م). فمزار محمد الزعبي. ومنه إلى قبّة سيّار في جبل قاسيون ومنهـا إلى قريـة دمّر، فالزبداني.. فالكرك.. فبعلبك..

وأما طريق العودة إلى دمشق فكانت من بعلبك إلى تمنين ونبي أيلا وكرك نوح وسعد نايل إلى سهـل البقاع، فتعلبـايا فقب اليـاس فـالمـرج والاسـطبل وكفـريا وجب جنـين وكامـد اللوز فميسلون والديماس حتى دمشق.

وكان الهدف من هذه الرحلة ـــ كما ذكرنا ـــ زيارة القبور والتبرك بها والدعاء عندها. وهي قبور الأنبياء من بني إسرائيل وقبور العلماء المسلمين، وهو في بعض الأحيـان يقف موقف المدقق من أسماء هؤلاء الأنبياء أو رافض لما يذكر ويروى عنهم فيقول: والله أعلم بحقـائق الأمور. أو والله أعلم بما كـان ويكون. وهـو يقول:(١٢)

«فلا قطع بتعيين قبر نبيّ أصلاً، إلا قبر نبينا محمد (ص)، فإنه مدفون بالمدينة المنورة، على طريق التواتر والعلم الذي لا شك فيه، استفاضة ونقلاً، فالزائـر لقبر نبـيّ من الأنبيـاء عليهم السلام محصّل للبركة، بالاستكمال، على حسب صدق نيته في الزيارة».

يضيف صلاح الدين المنجد (رحلتان إلى لبنان ص ٣٤). إنه يبني كلامه هذا عـلى ما قـاله الهروي في أن أكثر قبور الأنبياء قد اندرست وطمست لتقادم العهد وتغيّر الزمان.

وقد وصف لنا في رحلته هذه بعض المدن التي زارها مما أعطى رحلته قيمة تاريخية. فقد حاول ضبط أسماء كثيرة من القرى والمدن التي مرّ بها مستشهداً أحياناً بما ورد في كتب اللغة أو ما ذكره الجغرافيون عنها. ولقد تنبّه إلى أن أسماء بعضها تحرّفها العامة. كما يروي أحياناً أخرى أشعاراً قيلت في وصفها أو أنه ينظم هو شعراً في ذلك. كما يفعل في وصف قلعة بعلبك ورأس العين فيها وقلعة الأمير فخر الدين في قب الياس.

وإن أهميته تكمن في أنه يصف قلعة بعلبك بشيء من التفصيل لم يفقه فيه ممن سبقة ممن وصفوها من الرحالات العرب، فهو يتحدث عن أبوابها وساحاتها وأعمدتها وهياكلها وأبراجها وسلالمها وما يحيط بها، وفي بعض الأحيان يذكر قياس الأحجار والأعمـدة وارتفاعهـا وحجمها وعددها وما الى ذلك. كما يورد أخبارهـا كما ذكرت في المراجـع التاريخية.

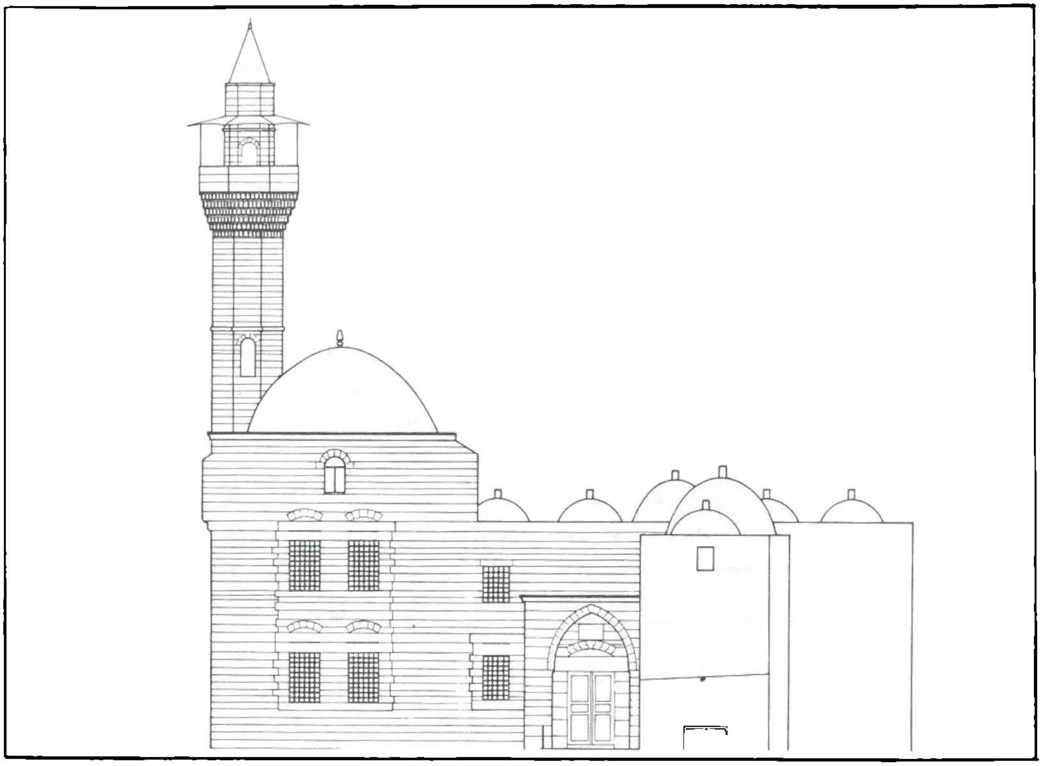
لقد زار بعلبك رحّالات أوروبيون منهم من سبقه ومنهم من جاء من بعده. ولكنهم لم يطّلعوا على ما وضعه في وصفها. ومن الذين سبقوه:

الرحـالة الفـرنسي دي مـونـكـوني (De Moncony) الذي زار بعلبـك عـام ١٦٤٧ م (١٠٧٦هـ) وتـرك مـلاحـظاتـه تحت عنـوان: (Voyages de monsieur de Monocony). كـمـا زارها الرّحالة الانكليزي هنري موندريل (Henry Maundrell) سنة ١٦٩٧ م (١١٠٩هـ)، اي بعده بسنوات، ونشر وصفه لها في أكسفورد سنـة ١٧٤٠ م تـحت عـنـوان: (A journey from Aleppo to Jerusalem at Easter 1697). وبعد حوالى نصف قرن من ذلك التاريـخ زارها رحّالة بريطاني آخر هو روبرت وود (Robert Wood) سنة ١٧٥١ م (١١٦٦هـ) أي بعد وفاة النابلسي. نشرت رحلته عـام ١٧٥٧ تحت عنوان: (The Ruins of Balbec. Otherwise Heliopolis in Coelesyria, London 1757).

وفي عام ١٩٠٠م (١٣١٨هـ) جاء إلى بعلبك العالم الأثري الالماني تيودور ويغاند (Theodor Wiegand) على رأس بعثة اثرية المانية دامت أعمـالها أربـع سنـوات وقد نشـرت نتـائـج الحفريات التي قام بها عـام ١٩٢١ في برلين وليبزيـغ (Theodor Wiegand; Baalbek, Berlin / Liepzig 1921, vol 1, p -12). وفي عام ١٩٥٣ جاءت بعثة أرسلتها منظمة اليونيسكو إلى بعلبك كانت مؤلفة من الأمير موريس شهاب وبول كولار (Paul Collart) وأرمـنـد ديلـون (Armando Dillon) وضعت تقـريرهـا عـام ١٩٥٤ تحت عنوان:

(Livan, Aménagement de la ville de Tripoli et du site de Baalbek. Musées et Monuments VI, Unesco).

وقد أشار التقـرير إلى مـا كتبه الرّحـالات الأجانب ولكنه لم يأت على ذكر ما كتبه الرحالة النابلسي.



□ جامع الأمير منذر التنوخي ـ الواجهة الشرقية.

أما ما تركه لنا عن وصف قلعة الأمير فخر الدين الثاني في قب الياس فهو أمر تفرّد به لأن من أرّخ للأمير المعني الذي قتل سنة ١٠٤٣هـ / ١٦٣٣ م، أمثال الخالدي والمحبي والشدياق والمعلوف والبوريني لم يذكروا شيئاً عنها.

وما يظهر لنا من رحلته هو النفوذ الإسلامي في لبنان في القرن الثاني عشر الهجري / القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين وشدة تمسك المسلمين بزيارة المزارات الدينية.

أسلوبه في هذه الرحلة، هو أسلوبه في سائر رحلاته، يميل إلى السجع أحياناً وهو الأسلوب الذي كان شائعاً في عصره. كما أنه يكثر من الشعر ويمزج الجد بالهزل في بعض الأحيان.

الرحلة الثانية:

التي يشمل قسم منها لبنان بدءاً من شماله وحتى جنوبه. وقد أمضى منها ٢٤ يوماً في لبنان.

الرحلة الثالثة:

إلى طرابلس الشام واسمها «التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية»[١٣] وهي آخر رحلة قام بها النابلسي وأطول رحلة قام بها إلى لبنان. وبدأها انطلاقاً من دمشق في ٢٢ ربيع الأول ١٠١٢هـ ـ ٦ أيلول (سبتمبر) ١٧٠٠م، وقد استغرقت ٤١ يوماً قضى ١٥ يوماً منها في طرابلس التي وصلها عن طريق صيدا الساحلية وعاد إلى دمشق عن طريق بعلبك عبر سلسلة جبال لبنان.

أسلوب النابلسي:

كتب النابلسي أخبار رحلته بأسلوبه المسجوع كعادته وذلك مجاراة لذوق عصره، وقد ضمنها مقطوعات شعرية بلغت المئة، ٤٨ منها من نظمه وقسم من نظم تلميذه ورفيقه في السفر «ابن عبد الرزاق». والباقي اقتباس عن شعراء بعضهم مشهور أمثال أبي نواس والمتنبي وبعضهم مجهولون.

ومهما يكن من أمر، فإن أسلوب الكاتب ما هو سوى دليل على مستوى الأسلوب الأدبي في القرن السابع عشر. والكتاب يمكن أن يعتبر من باب «الأدبي» أو «المذكرات اليومية» أكثر مما يمكن اعتباره من كتب الجغرافية والرحلات. وهو في الغالب لا يهتم إلا في وصف المدن فيعدد الجوامع والمساجد والزوايا والحمامات وأحياناً أبواب المدينة ويذكر العلماء ورجال الدين والمتصوفين ويذكر مذكراته ومساجلاته معهم وخاصة في بعض الأمور الفقهية، أو الأدبية، وهم من أصحاب المراكز كالقضاة ورجال الافتاء وأئمة المساجد وبعض رجال الدولة. ولا يهتم بالحياة الاقتصادية ولا بحياة عامة الناس ولا يأتي على ذكر النساء مطلقاً.

يقول بوسّه (ص ٣٦):

«وبالرغم من اقتصار النابلسي على ذلك فإن أخباره تعتبر مصدراً هاماً لمعرفة الاسلام في لبنان ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر». ثم يقارن (ص ٢٧) بين النابلسي والرحالة البريطاني(Henry ,Maundrell) الذي مرّ ذكره والذي قام برحلته من حلب إلى القدس سنة ١٦٩٧، أي في ذات الفترة التي قام بها النابلسي برحلته.

طريق الرحلة:

بدأت الرحلة يوم الاثنين في ٢٢ ربيع الأول ١٠١٢هـ / ٦ أيلول (سبتمبر) ١٧٠٠ م كما ذكرنا. فقد غادر دمشق إلى داريا متوجهاً إلى راشيا ومنها قاطعاً نهر اللاطاني (الليطاني) إلى مشغرة، وعبر طريق جبلية وعرة، وصل إلى صيدا، وهي الطريق الرئيسية بين صيدا ودمشق يوم ذاك. أمضى النابلسي في صيدا أكثر من أسبوع ثم غادرها إلى بيروت. ولكنه بدلاً من أن يتبع الطريق الساحلية، سار في طريق جبلية، في جبل الشوف، عبر عانوت حيث بات ليلته ومنها إلى دير القمر. ثم توجه ساحلاً نحو الدامور إلى بيروت حيث مكث يومين ــ مما يدل على أن بيروت في ذلك الحين لم تكن لها أهمية أدبية أو دينية مثل طرابلس أو صيدا ــ ومن بيروت أخذ الطريق الساحلية عبر جبيل والبترون والقلمون إلى طرابلس هدف الرحلة، في طرابلس مكث اسبوعين وعاد بعدها إلى دمشق عبر سلسلة جبال لبنان: اهدن ــ الأرز ــ فسهل البقاع ــ فبعلبك حيث مكث يومين ثم غادرها إلى الكرك فدمشق.

وهو يبلغنا أن الهدف من رحلته هذه هو زيارة الأصدقاء والخلان من أتباع طريقته الصوفية وزيارة القبور المقدسة والتبرك بها وكذلك تلبية دعوة ارسلان محمد باشا الوالي العثماني في طرابلس له. وهو يفيدنا بأن والي طرابلس قد رحّب به وأكرم وفادته بأن أرسل جماعة من رجاله لاستقباله في بيت فخم.

وفيما يلي نذكر ما ورد في رحلته عن بيروت ومشاهداته فيها، وذكره للشخصيات التي اجتمع بها ولبّى دعوتها، وكذلك المواقع والزوايا والحمامات التي زارها فيها.

بيروت

«وصلنا إلى مدينة بيروت وقت العصر، وزال عنا ما كنا قد لقيناه من التعب والحصر. ونزلنا في سراية حاكم البلدة وأميرها.. ولله هي من سراية رفيعة البنيان، مشيدة الأركان، بها أماكن كثيرة، ومياه غزيرة. وبها بركة ماء طولها ثلاثون ذراعاً، وعرضها عشرة أذرع بذراع الكرباس المعروف بين الناس. وفي خارج السراية أماكن متعددة مبنية كلها بالأحجار، تفوق بهجتها سنا الأقمار. وكل مكان منها مقدار هذه السراية. وهي الآن مهجورة ما عدا هذه السراية فإنها بالسكن معمورة، وأرجاؤها مشرقة بالحسن والبهاء. فلذا حاكم البلدة اختار السكن بها. وقد أخبرنا بأن هذه السراية عمارة الأمير عساف، والأماكن التي خارجها جميعاً قد عمرها بعده الأمير فخر الدين بن معن، وجعل بعضها لأجل العساكر والعدد، وبعضها لأجل الوحوش، فإنه كان عنده أنواع الوحوش كالفهد والنمر والأسد، كما هو مشهور عند أهل البلدة والجمهور.

«وقد رأينا في بلدة بيروت المحمية زوايا كثيرة، وجوامع، وحمامات. فلا بأس بذكر محاسنها السنية.

فمن الزوايا:

١ ــ زاوية مشرقة الأنوار تسمى بزاوية ابن القصار وهي نيرة، مرتفعة البنيان. يجتمع

فيها الحفاظ ما بين العشائين يتدارسون القرآن.

٢ ــ زاوية ابن الأحمر. يقام فيها الذكر والأوراد، وهي متسعة، بها ايوان به محراب كبير. وفيها بركة ماء بجانبها بئر يستخرج منه ماء غزير، ويصب في تلك البركة.

والجوامع التي بها أربعة:

الأول: الجامع الكبير، وهو يشتمل على اثنتي عشرة عضاضة، كل عضاضة يحوطها رجال وهي عظيمة العمارة. يقال انه كان في الأصل كنيسة. وفي جانبه بركة ماء طويلة كبيرة. وله بابان عظيمان بقسي عجيبه، كل منهما مقابل الآخر. ومقابل الباب الواحد زاوية ابن الأحمر المتقدم ذكرها.

الثاني: جامع الأمير منذر. وهو جامع عظيم البنيان، فيه منبر من الرخام الأبيض. وتكوينه عجيب، حيث سدة على يمين المحراب، وسدة أخرى على شماله، على اسلوب جامع السنانية بدمشق المحمية. يصعد إلى السدة التي على يمين المحراب من درج المنارة، والتي على شماله يصعد إليها من سدة أخرى في فناء الجامع. لها درج من خشب. وأمام المحراب فوق الباب الذي في داخل الجامع سدة ثالثة صغيرة أخفض من السدتين المذكورتين. وليس لها مصعد، بل يتوصل إليها من السدتين بدرجتين من الرخام الأبيض أحدهما على يمين المحراب، متصل بالسدة التي على اليسار. وفي فناء هذا الجامع بركة ماء عظيمة مثمنة. وفي دائر هذا الجامع رواقات بأقبية على عواميد عالية عظيمة.

الثالث: جامع الأمير عساف، وهو الذي عمر السراية المتقدم ذكرها. وبناؤه من العجائب. وهو مبني على أربعة عواميد، وفوق ذلك قبة عظيمة، يحوط بها أربع قبب، وأربع اقبوة، كل ذلك مركب فوق هذه الأربع عواميد. وفي فناء هذا الجامع بركة ماء غزيرة. وله أيضاً بابان. وهو أصغر من الجامع الكبير بيسير، ويجتمع فيه اناس من الحفظة ما بين العشائين، يتلون القرآن ويتعبدون.

الرابع: جامع البحر. ويسمى جامع العمري لأنه كما هو مشهور عندهم من زمان عمر بن الخطاب. وهو أصغر من الجوامع التي في بيروت، وهو مرتفع، مطل على البحر، يصعد إلى فنائه بسلم حجر نحو خمس عشرة درجة، ثم يصعد إليه بدرج آخر ثماني درجات. وهذه الجوامع الأربعة كلها بمنابر تقام فيها الجمعة.

«وأما حمامات بيروت فأربعة:

الأول: حمام الأمير فخر الدين بن معن.

الثاني: حمام القيشاني.

الثالث: حمام الأوزاعي.

الرابع: حمام قديم لا يعرف له اسم.

وكلها مهجورة، ما عدا حمام الأمير فخر الدين. وسبب ذلك الظلم من الحكام. فإن هذا الحمام للميرة، يؤجره الحاكم في كل سنة هو وقهوة هناك بألف قرش ومائتي قرش. وهذا الحمام هو المستعمل الآن ــ الذي هو حمام فخر الدين ــ مبلط بالرخام الملون، ويشتمل على شاذروان في داخله. يحوط بجوانبه الأربعة أربعة ايوانات، كل ايوان بقبو وقوس. وفي مشلحه بركة ماء مثمنة، ويشتمل على قبة مرتفعة على أربعة عواميد. يحوط بتلك القبة أربع أقبوة على أسلوب جامع الأمير عساف المتقدم ذكره غير أن الجامع يزيد عليه بالقبب.

الحواشي

(١) رحلتان إلى لبنان، تحقيق صلاح الدين المنجد واسطفان فيلد، بيروت ١٩٧٩ (من سلسلة نصوص ودراسات يصدرها المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت) رقم ٢١.

(٢) المصدر نفسه (ص ٢٦ ــ ٢٧).

(٣) هربيرت بوسّه، «التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية» بيروت ١٩٧١، (نصوص ودراسات سلسلة يصدرها المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت) رقم ٤.

(٤) Encyclopedia of Islam 2nd ed Vol. 1

(٥) Carl Brockelmann Vol. II p. 345.

(٦) رحلتان إلى لبنان (ص ١٣).

(٧) محمد خليل المرادي، سلك الدرر ٣/٣٢.

(٨) وهي الرحلة الأولى من كتاب رحلتان إلى لبنان الذي مر ذكره.

(٩) طبعة القاهرة، ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢ م.

(١٠) طبعت في دمشق سنة ١٢٩٩هـ، ثم القاهرة ١٣٢٤هـ.

(١١) مجلة تاريخ العرب والعالم الاعداد ٩٧ ــ ٩٨، ايلول / كانون الأول ١٩٨٦. والعددان ٩٩ ــ ١٠٠، كانون الثاني / شباط ١٩٨٧.

(١٢) رحلتان إلى لبنان (ص ٦٨ ــ ٦٩).

(١٣) انظر هامش رقم (٣).